

شعريّة المفارقة في مقالات مسعود محمّد

ضياء عبد الرزاق العاني^١

^١ قسم اللغة العربية، فلكلتي التربية، جامعة كؤبة، أقليم كوردستان، العراق

الملخص

إنّ المفارقة من المصطلحات التي تترد بكثرة في النقد العربي المعاصر، وهو مفهوم حيّ تتنازعه مقاربات مختلفة أشد الإختلاف، فقد يجد فيها عالم الإجتاع تجلياً من تجليات العلاقة الإجتاعية بين الأفراد، ويجد فيها الفيلسوف شكلاً من أشكال الجدل. فالمفارقة من المفاهيم المعرفية التي تغري حقولاً معرفية مختلفة، إذ لا تكاد تستثني نشاطاً إبداعياً يأتيه الإنسان، وهي تبدو في مظاهر شتى تتصل بالوجود والمجتمع، ومن ثم تنعكس صورها على الأدب، متمثلة في أوجه التناقض والتضاد. ولأنّ الأسلوب الذي اتّبعه (مسعود محمد) في بنائه لنصه الإبداعي يُغري المتلقي في البحث عن المفارقة بمختلف أشكالها التي تموضعت فيها، إذ كشف الأسلوب عن مهارة الكاتب في استعمالها في عناوين كتبه ومقالاته وفي داخل سياقاته، محاولاً من خلالها تمرير أفكاره، وتثبيت قناعاته، مستغلاً في ذلك الإمكانيات الفنية التي تتوافر عليها المفارقة بما فيها من طاقة ومرونة، بالقدر نفسه الذي تتوافر عليه من غموض وإبهام وتمويه وتعريض خفي وتورية، لضمان التفاعل المستمر بين القارئ والنص، ونقل رؤيته عن طريق هذه السياقات ذات المحولات الأدبية والإجتاعية والنفسية. لذلك وقع اختيارنا على دراسة (شعرية المفارقة في مقالات مسعود محمد).

تسعى هذه الدراسة للكشف عن شعرية المفارقة في صلب جدليتها بين الذات المبدعة والذات المتلقية، وقد عمدت فيها إلى رصد مظهرات المفارقة وبيان أهميتها الجمالية والدلالية في النصوص موضوع الدراسة. وقد اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد وثلاثة مباحث، عني التمهيد بدراسة المفارقة: اشكالية المفهوم والرؤية، واهتمّ البحث الأول بدراسة المفارقة عنواناً، وسعى البحث الثاني لدراسة المفارقة اللفظية، وكان من وكد البحث الثالث أن يعنى بدراسة مفارقة الصور والسلوك، وتلا المباحث خاتمة تضمنت نتائج البحث وقائمة بالمصادر والمراجع التي استعان بها الباحث

الكلمات الدالة: المقالة، المفارقة، العنونة اللفظية، الصور، مسعود محمد

Abstract:

This study aims at identifying the poetic paradox between the creative self and the recipient self. In this study, I tried to investigate the manifestations of paradox as well as its aesthetic and semantic importance in selected texts by Massoud Muhammad. The study is divided into a preface and three sections. The preface examines the paradox; it deals with its problematic conception and vision. The first section studies headline paradox (title). The second section deals with verbal paradox. The third section examines the paradox of images and behavior followed by a conclusion that sums up the findings and a list of references.

The study concludes that the use of paradox is prevalent in the articles of Massoud Muhammad; it forms a stylistic and aesthetic value. The paradox takes different forms: headline or title paradox, verbal paradox and situational paradox. The study also concludes that Massoud Muhammad was skillful in using paradox in his writings to deliver his thoughts and ideas and to confirm his convictions through his artistic capabilities which include power, flexibility, ambiguity and camouflage.

Keywords: Article, Paradoxically, Verbal addressing, Pictures, Massoud Mohamed

1. المقدمة

2. المبحث الأول/ مفارقة العنوان:

يعدُّ العنوان بنية اشارية دالة، تحمل كثيرا من خفايا النص، بل قد يحيل العنوان إلى ما لا يقوله النص، عن طريق استراتيجيته الضاغطة داخل العمل الأدبي، وتتميز بطاقة توجيهية هائلة.

وقد شكلت المفارقة في العنوان رافدا اضافيا يصب في وظيفته، لغرض صدم المتلقي وسحب انتباهه، وهي من أكثر المفارقات أهمية. وجدير بالذكر إن الأعمال ذات الاشتغال المفارق تتصف عنواناتها بالاختلاف والإيجاز؛ إذ يسعى المبدع إلى وضع عنوان يحمل دلالات متنافرة بين عناصره اللغوية، بوصفه سؤالا اشكاليا سيكون النص بأكمله محاولة للإجابة عنه، فيعلن عن طبيعة النص بشكل كلي أو جزئي بشكل غير يقيني أحيانا، ولا تكتمل يقينته إلا بأكمل النص.

إنَّ عملية العنوان عند مسعود محمد، ليست اعتباطية بل هي قصدية واعية، تخضع لاستراتيجية معينة، قوامها البحث عن التجديد، سواء في الشكل أم المضمون، فعلى الرغم من أن العناوين - بصفة عامة - تُصنَّف ضمن خارجيات النص أو ما اصطلح عليه بالعبئات (Seuils)، إلا أنَّ مسعود محمد أبدى عناية في اختيار معظم عناوين مقالاته، إذ شغنها بجملة من المعاني والدلالات والإيجازات، جعلت منها - بالفعل - مؤشرا خارجيا أوليا ومفتاحا حقيقيا معلنا عن هوية نصه.

كما أنَّ العنوان أيضا تميَّز عند مسعود محمد بطاقة إيجائية معبرة، يحمل في مدلوله تشظيا يتغلغل في متن نصه، محدثا مفارقة تتزاح إلى معني آخر غير ما يتراءى للقارئ عند الوهلة الأولى ففي مقالة (فصم العقدة عقدة) تحيل دلالة لفظة الفصم إلى ترخية الشد في الخيوط الملتفة، وفصل بعضها عن بعض كالحاجزة بين شخصين متصارعين، لينصرف كل منهما إلى وجهته، والمفارقة هنا متأتية من تغيير مسار الدلالة اللغوية للفظ (فصم) والتي تعني الحل، فالعقدة قد تتحول بعد حل عراها إلى عقدة أكثر تعقيدا، وبحال الكتب أن يحل هذه الأحجية بضرب أمثلة من التأريخ الذي كان مليئا بالأمثلة الحية والميتة على الفصم الذي كان بابا للكوارث، إذ يقول: "وللقارئ أن يلاحظ في التأريخ نماذج ضخمة في انفصال دول كبرى إلى دويلات تمثل شعوبا في هيكل الدولة الكبيرة كانت تعتبر (كذا) هضبة الحق في هيمنة الأخ الكبير المجتهد للأرومة الأكثر تعدادا حتى إذا تحقق الحلم البهيج واستقلَّ الأخوة الصغار كلُّ بشأنه فغر الواقع الجديد فاه ليلتلع بعضا من هذه الأحلام البهيجة بجعلها فرصة لمفترس جديد أو افتتح عليها بصعوبات واختناقات من مثل ما دفع باكستان الشرقية إلى الخلاص من نواها باكستان الغربية عبر مخاض اليم كان من صفحاته أم الهند وهي الأم التكلّي بالإنفصام أعانت الشرقية على الغربية في نزاهة كانت بقية باقية من قدسية غاندي وشرف نهرو، مشوبة بشوائب لا تغير جوهر القضية" (محمد، 1995/3/23/ العدد 7123). وهكذا فإنَّ الكاتب يصور هنا أن فصم العقد بعد اشتدادها أصبح عقدة قائمة بذاتها، وبذلك فإنَّ النص يرتبط دلاليا بعنوانه وينتهي معه، إذ ثمة مؤشرات في النص تتصافر فيما بينها لتجعل من العقدة بؤرة خطاب العنوان.

نالت المفارقة في النقد الأدبي الحديث اهتماما كبيرا، واتجهت بعض الدراسات إلى الكشف عن قيمة هذه التقنية في معاينة النصوص الأدبية وبحث ما تنفرد به من تميز (انظر مسردا بأبرز الدراسات التي تناولت المفارقة في: سلجان، 1999، 103-120). وثمة إطلاق مجاني لمفهوم المفارقة ينطوي على توسع كريم ومضطرب، أتاح لعدد من الدارسين استعماله في موضعه وفي غير موضعه، حتى صار التشبيه الغريب والاستعارة البعيدة بل حتى الصورة المبهمة مفارقة، وما يهنا هنا هو الاتفاق على تعريف جامع وواضح يحظر الاستعمال المجاني لهذا المصطلح، ويزيل دواعي اللبس.

تعني المفارقة في اللغة المبادأة والمباينة، يقال "فارق الشيء مفارقة وفراقا: باينه" (ابن منظور، 2003، 81/7 مادة فرق). بناها في الاصطلاح تعني جملة من المعاني التي يصعب تحديدها، فهي مصطلح غربي مترآك الدلالات يتخذ أكثر من شكل في تحديد مفهومه فهو غامض وشائك ويثير الالتباس، فهي عبارة عن "لغة لغوية ماهرة وذكية بين الطرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدِّم فيه صانع المفارقة النص، بطريقة تستثير القارئ تدعوه إلى رفض معناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي، الذي غالبا ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة يرتطم بعضها مع بعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بالَّ إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه، ليستقر عنده" (سلجان، 1999، 46).

تعدُّ المفارقة من المفاهيم الخصب التي لاقت اهتماما كبيرا من قبل المبدعين والنقاد، وهذا بسبب مقدرتها على المراوغة والمناقضة، وتعدد المعاني وتضادها، فغالبا ما تكون البنية السطحية في المفارقة تناقض وتضاد البنية العميقة مع وجود قرينة أو مفتاح يكون بمثابة الخيط الذي يعين القارئ على اكتشاف المعنى المقصود، إخفاء قصيدة المبدع وراء ستار الكلمات تكون له غاية وهدف يريد إيصاله بطريقة فنية تثير فطنة القارئ وتلح عليه لاكتشاف المحبوء والكامن في النص.

فالمفارقة هي رؤية معقّنة هدفها كسر كل ما هو تقليدي وسائد في التعبير للوصول إلى كلّ ما هو مألوف وغير متوقع حتى يلتبس الأمر على القارئ للوهلة الأولى، ويذهب به الظن إلى وجود تناقض سرعان ما يكشف أنه تناقض ظاهري مقصود، لا يلبث أن يزول ويستقيم النص في أجمل صورة للتعبير وأعلى مراتب البلاغة، فـ"المفارقة تقنية لغوية تنتج دلالة متضادة تفاجئ القارئ وتدهشه، فتثيره بوعي منه أو لا ووعي لأمر يدعوه إلى السخرية والتهكم" (جاسم، 2018، 129). وبذلك فالمفارقة نغمة أسلوبية أساسه التناقض بين ما هو حقيقي وزائف ليثير ذهن القارئ، فهي خصيصة فنية مشوقة تعمل على تجلية المعنى وإظهاره في صورة أبلغ وأجمل وأكثر تأثيرا مما لو أدي بوسائل التعبير النمطية، لما تمثله من هدم مستمر للتأويل، وكسر المألوفات.

هروهها كهريده (المنشي البغدادي) له سالي (1822ز) سهرداني كويهى كردووه دهلى: كويسنجاك شارىكى خوْشوو جوار هه زار مالى تيداىوه قه لايهكى قاىى ههيه، زمارهى هوْزو هشيرهته كافي له زماره ناين، ههتا سنورى شارى (خوى) دريْژ دهبنهوه، له لايهكى تريشهوه دهگهته شارى ههولير، كشتوكاليان توتن و گهمه و ترييهو ميوههاتى تريشى زوره. (المنشي البغدادي، رحلة المنشي البغدادي، ص 61).

مسار الدلالة الأولى، حين قال: " ليس المقصود بالقيم في العنوان المتقدم سعر المعروضات للبيع والشراء، وإنما المقصود هو ما تواضع الناس عليهم وجاهة الأشياء من سلوك وتصرف وعرف، وما إليها من متعلقات البشر كالصدق والأمانة والوطنية والإيثار " (محمد، 13/آب/1، 1994). ويبدو أن القيمة الخلقية وإن كانت مستقرة وثابتة الدلالة لدى المتلقي، إلا أنها عند مسعود محمد قد تبدو غير مستقرة الدلالة، إذ قد ترتبط بالموقف، وهذا ما يبدو جليا في لفظة دردشة التي جاءت في سياق عنوان هذه المقالة، وهذا ما صرّح به الكاتب حين قال: " وتتفاوت خطورة القيمة الاعتبارية للعمل الواحد بحسب الزمان والمكان والظرف الذي يحويه، كأن يكون (الصدق) بحضور السلطان في أمر خطير يريد اخفاء داخلا في دائرة البطولة، على حين يكون الصدق في أمر مماثل يفضح متسولا في الشارع أمرا مخلا بالمرءة (محمد، 13/آب/1، 1994).

3. المبحث الثاني/ المفارقة اللفظية:

لا تخرج هذه المفارقة عن كونها دالا، يؤدي مدلولين تقيضين أحدهما قريب نتيجة تفسير البنية اللغوية حرفيا، والآخر سياقي خفي (شبابه، 2002، 64). والمفارقة اللفظية في أبسط تعريف لها " هي شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر، يخالف غالبا المعنى السطحي (الظاهر)) (العبد، 1994:71)، وهي لون من ألوان الانزياح عن النمط العادي للأسلوب، يأتي فيها المعنى المقصود مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر، وهي انزياح لغوي يجعل بنية لغة ما تتسم بالمرآوة، ويأتي المعنى المقصود دوما مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر. فالمفارقة اللفظية " نمط كلامي أو طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى فيها مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر)) (سليمان، 1991، 68 وما بعدها). وقد يسعى مسعود محمد إلى وضع ثنائيات متضادة؛ لأنه أراد أن يحدث نوعا من التناقض، ومن ثم " تتسع الهوية بين توقعات المتلقي وتخيّناته، وما عليه النص من حقيقة، ويعرف هذا بالمسافة الجمالية التي تعبر عن مقدار مخالفة النص لتوقعات القراء)) (ابراهيم، 1987، 134). يقول الكاتب: " لا خير في منهج ينقلب في حال نجاحه إلى مطحنة وحرقة ومسلخ، ولا خير في تضحيات تزول بأصحابها في حال نجاحها إلى قاتل ومقتول وساجن ومسجون وقاهر ومقهور في الاستئثار بالسلطة" (محمد، 1993، 2/5/2).

يعتمد مسعود محمد أسلوب التراكب الدلالي للتضادات الفرعية، للوصول الى قمة المفارقة السياقية، إذ يوظف الكاتب التقابل بين صورة القاتل والساجن والقاهر، وصورة المقتول والمسجون والمقهور في تركيب واحد؛ ليرز المفارقة بين الصورتين التي تحمل خلف هذه المقابلة إحساسا متناقضا، والمتلقي لا يلبث أن يكتشف ملامح المفارقة التي سعى مسعود محمد إلى تحقيقها من خلال الثنائيات الضدية، فلعل متعة المفارقة في رؤية شيتين متناقضتين في آن واحد وفي مكان واحد، ورؤيتهما معا في سياق جمالي. ومن هنا فإننا نلاحظ أنّ المفارقة التي تقدمها لنا صورة التضاد بين (القاتل-المقتول) و(الساجن-المسجون)، و(القاهر-المقهور)، تختزل التعبير عن أوجه الصراع وكيّفاته. وربما تكون المفارقة اللفظية المكثفة أنسب أشكال المفارقة في تكوين دلالة النص القائم على تكريس لصورة القيم، على نحو ما نلاحظه في مقالة (في ملكوت الموت الكريم)، يقول مسعود محمد مبيّنا عددا من الصفات التي تحلى بها عبد المحيد لطفي: " فما أظنه أقام في باله معادلة تنتهي به إلى راجح ومرجوح في القيم والذم والتراجيح بالرأي بين القعور والقمم فقد طفق يطوي العمر إلى أجله منقادا بطبعه في شارع ذي اتجاه واحد بلا فروع على الجانبين يضئ في نهايته مصباح يجذب إليه صاحبنا انجذاب الفراشة"

ويفتح عنوان مقالة (هل من الضروري أن تفكر؟) شهوة الاغواء للبحث عن الاجابة، إنّ مجي الإستفهام في هذا العنوان يحمل المتلقي على المشاركة في ترقب الإجابة، الأمر الذي يوتج من دائرة أفق التوقع لدى المتلقي، والسؤال في هذا العنوان ينطوي على مفارقة، ويشي بنوع من الاستفزاز والسخرية من جدوى أن تفكر، فالصلة بين الفكر والعقل تكاد تصل حد التلاحم، فالإنسان أيا يكن مبلغه في مراتب التفتح لا يملك الخيار في أن يفكر إلا إذا عطله التخويف أو صادته الشعوذة، ويبدو التناقض بين العنوان ومتمن المقالة جليا، فالكاتب في عنوان مقالته يتساءل بقوله: (هل من الضروري أن تفكر؟)، حيث الإستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التعجب والاستغراب، ولكنه في سطور مقالته يؤكد على أهمية الفكر بقوله: " إنّ الفكر أقوى مسبار للعقل في الكشف والقياس والاستبلاء، فقد تمخض الفكر فولد الفلسفة والمنطق وعلم الفلك والفيزياء.. فالفكر سلاح فعال في محاولة البقاء وقهر المتعسر والمتعذر" (محمد، 11/6/1993، العدد 4221) ولعل المفارقة تنكشف أكثر في موقف الكاتب الراض تعطيل الفكر بحجة الاستبداد والتبعية للآخر، إذ يقول: " وإذا كان الزام المسؤول برأي المفكر أمرا غير وارد، فمن الانصاف للفكر والمفكر والمصلحة الوطنية أن يتيسر للفكر نشر وجهة نظره في أمور يتقنها ضمن حدود حرية تليق بمقام الفكر وذلك أوسط الإيمان" (محمد، 11/6/1993، العدد 4221).

وفي مقالة (الارتقاء إلى أسفل) تبدو وظيفة العنوان وظيفة مرجعية، إذ ينقل الكاتب صورة عن المأساة في الرقي المتسفل والتي هي وليدة واقع حضاري تفرزه بالضرورة معجزات العلم والتقنية، وهذا ما يتجلى في قول مسعود محمد: " ومن هذه الحقيقة الضخمة الفخمة تبدأ رحلة الارتقاء إلى أسفل، وليس في يد العلم والفلسفة وفلق الذرة وحبس الشاطين في القاتم أن يمنعها ويوقف سيرها المتحدر. فلا ضمانة لحد يومنا هذا ضد أسوأ الاحتمالات في استعمال أشد الأسلحة فتكا بالبشر، بل أكثرها قدرة على انهاء وجوده..." (محمد، 21/آيار/ 1994، 1). كما يمكن أن تكون لهذا العنوان وظيفة تحفيزية، وهذه الوظيفة متأتية من الأسئلة التي يواجهها المتلقي عند قراءة العنوان، فهذا العنوان التحفيزي المفاقي يفتح شهية المتلقي لقراءة النص، فيحاول فك شفراته عن طريق تراكب الاستفهام في ذهنه الناتج عن مفارقة العنوان، فيضطر إلى دخول عوالم النص بحثا عن إجابات لتلك الأسئلة بغية اسقاطها على عنوان المقالة.

ويؤشر عنوان مقالة (في ملكوت الموت الكريم) في بنيتها السطحية وصف الموت بموصوف غريب، وهذا ما ييم عن توافر العنوان على سمة شعرية تطبع بنيتها من خلال المفارقة التي تتجلى في الفجوة التي تحققت من وصف الموت بالكريم (محمد، 15/كانون الأول/ 1992).

ويشكل العنوان في مقال (دردشة مع القيم) بنية سيميائية كبيرة تولد من رحم النص، وتكون فاعلة ومؤثرة لا في النص فحسب، ولكن في طرف خارجي هو المتلقي، وذلك بما يؤسس عليه من أفكار، وما يوحيه من دلالات وإشارات، وما يتمتع به من كثافة لغوية ومعنوية، لا تفصله عن النص فواصل وحدود، فهو يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص، وما أشكل وغمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد انتاج نفسه، والعنوان هنا على قدر كبير من الإيجاء ودال لمدلولات متعددة تشي بنسج النص، وتكون أرضية ومفتاحا سيميائيا للدخول إلى عالم النص، فقد اشتمل العنوان هنا على دالتين توزعتا على القيمة التي تعني المقدار والقيمة التي تحيل الى ما تواضع عليه الناس من سلوك وتصرف وغزف، إلا أنّ قراءة هذه المقالة تشف عن تقييد وتخصيص دلالة العنوان عن طريق استبعاد الدلالة الثانية والإبقاء على الدلالة الأولى المتمثلة بمجموعة القيم الخلقية كالصدق والأمانة والحلم والإيثار، وجدير بالذكر أنّ الكاتب وجه المتلقي نحو

4. المبحث الثالث/ مفارقة الموقف:

ويقال لها أيضا مفارقة السياق، لأنه عنصر مهم فيها، ومرتبطة بمحدثها وقياسها، ومفارقة الموقف ناتجة من اسمها عن موقف ما.

ولا تتضمن بالضرورة وجود شخص يقوم بالمفارقة، لكنها مجرد حالة أو ظرف أو نتيجة لأحداث من شأنها أن تصاف إلى ذلك، وهي مشابهة للمفارقة اللفظية، ولكنها تميل لأن تكون فلسفية أو كوميدية أو مأساوية، والمفارقة عن الموقف تكون غير مقصودة من صاحب المفارقة (ميويك، 1993، 43)، كما هو الحال في المفارقة اللفظية، ويظهر التناقض في الأفعال في مفارقة الموقف في لحظة معينة، وتتولد من كشف حقيقة تكمن وراء المظهر، وتميل لإثارة المسائل الفكرية.

ويبنى هذا النوع من المفارقة على موقف يناقض ما ينتظر فعله تماما، إذ يأتي الفعل مغايرا للوجهة التي يجدر بالإنسان أن يقوم بها، عبر صيغة ذكية يقدم فيها النص طريقة تستثير المتلقي وتدعوه لرفض الدلالة الحرفية لصلحة الدلالة الخفية، ولعل جالبية مفارقة الموقف تكمن في تنوع تأويلها عبر الكشف عن المأساوية المضحكة عبر تقديم الوجه الآخر للحالة بسخرية مريرة تهدف كما يقول ماكس بيريوم إلى إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيرا (المفارقة والأدب، 47).

وفي مفارقة الموقف عند مسعود محمد غالبا ما نجد سخرية أو دعابة توجي بكثير من الألم والمرارة والحياة، ظاهرها مضحك، ولكنه ضحك كالبيكاه، تمتاز فيه السخرية بالوجع والهز بالألم، وهي محاكاة لواقع مؤلم تعبر عن فجيعة بالسخرية المريرة، وترك المتلقي مصدوما يضحك، ولكن تخنقه العبرات يختلط عليه صوت الشئيد والنشيج، فيدرك متأخرا أنه يعيش في مفارقة دائمة، من ذلك ما نجده في مقالة (من الخلة فصاعدا)، إذ يقول: "إني أخيب من قمع الندم ومحاسبة الذات على التلذذ بكبد دجاجة أو صدر خروف وتعروني قشعريرة الاستنكار لمنظر الدم المتفجر والحنطة المحتلجة إذ تغوص السكين أعمق وأعمق في مخانق الضحية في ممرحان للسليخ والمخ تهميدا لتحريك الشبهة وتطمين الرغبة إلى لقيات مغريات يصفو بها مزاج الأكل حين يدير يدا مرتاحة على معدة ملآنة ثم وسناته تهضم على محل ما التهمته لتزاح به في نومة القيلولة... تلك حياتنا وهي رغم تعليلاتنا الفلسفة مشابهة من كل وجه لما يفعله الذئب بالثعلب والغنم وما يفعله الثعلب بالأرنب والقبح على حمل منه بالتبريرات والتسييبات وأهازيج الفرح يوم يكثر في زواج الأديمي الثري" (محمد: 1995/7/22 العدد 5808، 2).

ينطوي نص مسعود محمد على مفارقة متقدمة، تمتاز فيها السخرية والألم والاحتجاج والتفرد، وقد بنيت المفارقة في هذا النص بشكل أساسي على السلوك السلبي الذي وقر في الازدهان عما يحصل في ولائم الاثرياء، إذ يعتمد هذا النوع من المفارقات السلوكية في بنائه على رسم السلوك الحركي الغريب ومسبباته، رسا لغويا حصيلة صورة تكني عن الدلالة الثانية أو المعنى غير المباشر الذي يتضاد هنا مع حقيقة الشيء وأصله، فينتج عن ذلك التضاد معنى الاستهزاء والسخرية.

وتخلف مقالات مسعود محمد بنادج متعددة من هذا النوع، من ذلك قوله: "ثم إنَّ العقول المتشرية للباطل أطوع للأفكار الساذجة المحلاة بالتلفيق الشهي، فما أسهل اعتناق الجاهل المسطح بالحوته والمنحوتة في تفسير الخسوف والكسوف بقياسه إلى صعوبة هضم الفلك وثبات الشمس ودوران الأرض والقمر إلى آخر المقالة التي تدوِّخ فيها العقول... ولللكلام بقية" (محمد، 1995/6/17، 7).

تظهر المفارقة في كيفية تصوير الكاتب للعقول المختلفة الظالة المتشرية بالخرافات، إذ تشكلت المفارقة عن طريق السخرية التي فتحت الأفق لدى المتلقي لإدراك النص.

(محمد، 15/كانون الأول/ 1992). تتكا هذه المفارقة في بنيتها على ألفاظ تنفي إلى فضاء واحد هو فضاء الثبات على الرأي، ولعل تكريس هذا الفضاء جاء مُجسدا في مفارقات ساعدت صور التضاد بين (راجح ومرجوح والقصور والقمم) على تحقيقها.

وقد تشتمل مقالات مسعود محمد على مفارقة لفظية مضمرة، تستشف من القراءة العميقة للمقالة بأجمعها، على نحو ما نجده في مقالة (الكاتب لماذا؟)، إذ يقول: "فهي في واقع أمرها روح ثانية يضيفها القارئ إلى ضميره ولا تكلفه من الجهد والمال أكثر من كلفة ذهابه إلى الريس في رهان خاسر أو في عشرة (طاولي) تنتهي باللكم والشتم. والكتابة سلاح خطير هو بالأصل من أجهزة كفاح الخير ضد الشر، فالشرير في هوى نفسه أطوع قيادا إلى الظفر والناص والمنصر والقاطع ويطول أساءه في تعويد يده على الامساك بالقلم والريشة والارميل عوضا عن القنابل والخنجر وفتايل الحريق" (محمد، 5/2/1993).

سار النص بتلقائية مناسبة في التعبير عن منزلة الكتابة وما للكاتب من أثر في نشر الحقائق وتوعية المفسدين والمتطفلين، وهذا الانسياق لا يبدده سوى المفارقة التي أحدثها المقطع الأخير من النص مفاجئا القارئ المتلقي ومروغا له، وذلك في قوله: "ولكن لا صعوبة باهظة في شراء الضائر القادرة على الكتابة من قبل أناس قد يدفعون ثروة عن طيب خاطر في حيازة بهيمة توافق مزاجهم، فإذا سنحت لبائع الضمير سائخة المساومة على قلمه فليحترمه في تسعيرة بما لا يقل عن قيمة البهيمة المرغوب فيها والا هزلت ورب الكعبة (محمد، 5/2/1993).

تندفق صور المفارقة (المضمرة) في هذا النص، إذ قرأ تكريسا لصور المساومة في الكتابة ونقيضها، فهذا المقطع مؤسس على بنيتين متقابلتين متضادتين، هما: (الالتزام والمساومة)، وهما رمزا للمفارقة فيه، إذ يبدأ النص ببيان قيمة الكتابة بوصفها عطاء عقليا وزادا ثقافيا يجلي النظر، ويربي الإحساس المتحضر فضلا عن كونها أرق وسائل الامتاع، ثم ما يلبث الكاتب أن يبرز خطورة هذا السلاح أي الكتابة حينما تتحول إلى مزاد أو سلعة تباع وتشتري.

وفي موضع آخر يزداد جلال المفارقة بكسر أفق تلقي القارئ الذي رسم في ذهنه صورة ايجابية لحل المشكلة، ولكن الكاتب يفاجؤنا بصورة مغايرة، نحو قوله: "ولا أدخل في تفاصيل ما حدث بعد ذلك وأكتفي بكلام في منتهى الاختصار، يصور كيف أن فصم العقدة بعد اشتدادها أصبح عقدة قائمة بحد ذاتها، فقد كفانا ابتلاء بها أن خير ما كنا نتوقع من بركات (التضامن) وهو يلفظ روحه أن يتم (كنا) فصمه بالحسن والمسالمة ولكن هيئات هيئات، فقد كثرت بعض الايدولوجيات المتشنجة والأطاع الضيقة عن أنيابها ومخالبها وجزدت سيوفها ورمحها، فأقامت في كل ركن حلبات مصارعة بالسكاكين ونزالات تصفية غسلت الماضي بدماء اخوان الأمس القريب على مهب النسائم الرخية من الشعارات المزدانة بأحلى الكلام وأجمل الأمانى" (محمد، 2/1995/3/23).

قد يعجز المتلقي عن ادراك ما يرمي اليه مسعود محمد من هذه المفارقة، إلا أنَّ القراءة المتأنية تسهل على المتلقي فهمها، لأنه هنا يواجه آفاقا من المرواغة والتناقض، فليحيط التي يراود فصمها في هذه المقالة هي قضايا ومصالح وعقائد ومناهج تشابكت بسبب ما بينها من خلاف وتضاد، فهي اذا انفصمت اليوم بحكمة حكيم عادت الى التشابك في يوم قريب.

ولا يخفى إنَّ الكاتب هنا يكشف عن براعة في اللغة تكشف عن علاقات جالبية تتجاوز المعنى الحرفي للمفردة بخلق مسافات جديدة بين الدال ومدلوله مستعيرة من الشعر ايجائيه في مثل جملة من الصياغات، كقول الكاتب: (كثرت بعض الأيدولوجيات -غسلت الماضي- مهب النسائم).

6. المصادر

6.1 الكتب

ابن منظور (ت714هـ): محمد بن مكرم، 2003، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة مصر.
سليمان: خالد، 1999، المفارقة والأدب دراسات في النظرية والتطبيق، دار الشروق للنشر، ط1.

شبانة: ناصر، 2002، المفارقة في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دمشق.

العبد: محمد، 1994، المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، مطبعة الأمانة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1.

مبيوك: دي. سي، ترجمة: لؤلؤة: عبد الواحد، 1993، المفارقة، موسوعة المصطلح النقدي الجزء الرابع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

6.2 الدوريات

ابراهيم: نبيلة، 1987، المفارقة، مجلة فصول، مج7، ع (4-3).

جاسم: نوال مطشر، 2018، المفارقة في الخطاب القرآني، مجلة كلية الآداب، ع31.

سليمان: خالد، 1991، نظرية المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، مج5، ع2.

6.3 المقالات

مسعود: محمد، 15/كانون الأول/ 1992، مقال في ملكوت الموت الكريم، آفاق كردية، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 2/5/ 1993/ العدد 4186، مقال الكاتب. لماذا؟، جريدة القادسية، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 11/6/ 1993، العدد 4221، مقال هل من الضروري أن نفكر، جريدة القادسية، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 13/آب/ 1994/ العدد 5566، مقال دردشة مع القيم، جريدة العراق، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 21/3/ 1995/ العدد 7123، مقال الارتقاء إلى أسفل، جريدة العراق، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 23/3/ 1995/ العدد 7123، مقال فسم العقدة عقدة جريدة القادسية، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 17/6/ 1995، مقال حب الوطن بشروط، جريدة العراق، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

محمد: مسعود، 22/7/ 1995/ العدد 5808، مقالة من النملة فصاعدا، جريدة العراق، جمهورية العراق.

http://www.mamosta.net/Arebi/Gutari_Arebi/MM_Hel_mn_al_Dheruri.jpg

وفي مقال (حب الوطن بشروط) نلاحظ أنّ النص يتخذ مسارا ساخرا في التعبير عن موقفين متقابلين، يمثل أحدهما موقفا ساذجا بدا مقتنعا في معالجة اشكاليات محيطه بساذجة وبساطة، تتّكّل في موقف الوطنيين من خصومهم، حيناً عمدوا الى قلب وطنية الخصوم "الوطنيون المنتفضون بالتوثب والثور في الدنيا عموما وفي العالم الثالث خصوصا يمارسون طقوس عناية الضمير وقصر النظر وتجنب الاصابة في قيامهم بالوفاء الخالص للوطن الأم حين يتخذون من هذا الوفاء والولاء تبريرا لا يقبل النقاش لقلب وطنية الخصوم الى كفران وجود وضلال وجريمة يستحقون عليها ما يستحقه المجرم المحكوم بالاعدام في جريمة قتل عمد مع سبق الاصرار والترصد" (محمد، 17/6/1995).

تشكل المفارقة عند مسعود محمد آلية من آليات بناء النصوص الأدبية، يعتمد إليها لكسر الألفة المعتادة، والخروج من المعتاد إلى غير المعتاد، إذ إنّها تتجاوز لأشكال التعبير السائدة، وخلخلة للبنى المألوفة استنادا إلى خلفية فلسفية تتم عن تصوّر الكاتب ورؤاه تجاه الحياة والإنسان، فهي وسيلة للثورة والنقد واصلاح أوضاع معينة عندما يفشل النقد المباشر، إذ تتعالى حدة المفارقة، وترطم الحقائق ببعضها محزنة سخريات لاذعة من هؤلاء الوطنيين ((وهم في هذا لا يمتارون عن عابد صنم أو غم مشغول الفكر والروح بتقديس معبوده خارج كل نطاق العقل والمنطق" (محمد، 17/6/1995). وهذا تكون المفارقة عند مسعود محمد استراتيجية تتعلق برؤيته فيرى الاشياء بعين المفارقة في كل زمان ومكان.

5. النتائج

1. تشكل المفارقة عند مسعود محمد آلية من آليات بناء النصوص الأدبية، يعتمد إليها لكسر الألفة المعتادة، والخروج من المعتاد إلى غير المعتاد، إذ إنّها تتجاوز لأشكال التعبير السائدة، وخلخلة للبنى المألوفة استنادا إلى خلفية فلسفية تتم عن تصوّر الكاتب ورؤاه تجاه الحياة والإنسان، فهي وسيلة للثورة والنقد واصلاح أوضاع معينة.

2. انتشرت المفارقة في مقالات مسعود محمد بشكل مكثّف، وقد شكّلت عناصر جالية وأسلوبية أسهمت في استمرارية تلقي مقالاته، وقد توزّعت تلك المفارقات بين مفارقات عناوين ومفارقات لفظية ومفارقات الموقف.

3. إنّ عملية العنونة في مقالات مسعود محمد، ليست اعتباطية بل هي قصدية واعية، تخضع لاستراتيجية معينة، قوامها البحث عن التجديد، سواء في الشكل أم المضمون، وقد أبدى الكاتب عناية في اختيار معظم عناوين مقالاته، وشحنها بجملة من المعاني والدلالات والإيحاءات، جعلت منها – بالفعل – مؤشرا خارجيا أوليا ومفتاحا حقيقيا معلنا عن هوية نصّه، وتميّز بطاقة إيحائية معبرة، يحمل في مدلوله تشظيا يتغلغل في متن نصه، محدثا مفارقة تنزاح إلى معنى آخر يصدم المتلقي ويسحب انتباهه.

4. يعتمد مسعود محمد أسلوب التراكم الدلالي للتضادات الفرعية، للوصول الى قمة المفارقة اللفظية، وقد تشتمل مقالات مسعود محمد على مفارقة لفظية مضمرة، تستشف من القراءة العميقة للمقالة بأجمعها، لأنّ الكاتب يسعى إلى أن يواجه المتلقي آفاقا من المروعة والتناقض.

5. برزت في مقالات مسعود محمد مفارقة الموقف، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنّه حاول أن يقدّم أفكاره ورؤاه بأسلوب فلسفي، وبهذا تكون مفارقة الموقف عند مسعود محمد استراتيجية تتعلق برؤيته فيرى الاشياء بعين المفارقة في كل زمان ومكان.